مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
مؤتمر اللغة العربية وآدابها الدولي الثاني // أربيل 30 - 31 / 7 / 2025
الجزء الثاني
أيلول / 2025
doi.org/10.52866/esj.2025.03

الاتجاه الأخلاقي في نقد أشعار امرؤ القيس عند الباقلاني(403هـ) وابن شرف القيرواني(460هـ)

م.د أنسام يونس حماد
الجامعة العراقية / كلية التربية للبنات

مستخلص:

أن المتتبع للتراث النقدي العربي يلحظ تعدد الاتجاهات النقدية في الوقوف عند الشعر منها الاتجاه اللغوي والاتجاه الفني والاتجاه التاريخي والاتجاه الأخلاقي وغيرها من الاتجاهات التي كانت محط اهتمام النقاد. ولما كان امرؤ القيس وشعره موضع بحث ونقد كونه رائد الشعر الجاهلي ولما يمتلكه نصه الشعري من ثراء معرفي يحتاج من القارئ الغوص في عمق مدلولاته وهذا ما أدركه النقاد القدامى المشارقة والمغاربة على حد سواء ، ومنهم الباقلاني وابن شرف القيرواني فقد وجدا في شعره مادة نقدية تتوافق مع الاتجاه الأخلاقي في نظرتهما إلى الشعر. ومن هنا كان الوقوف عند هذا الاتجاه وتسليط الضوء عليه في هذا البحث من خلال الوقوف أولا عند نشأة الاتجاه الأخلاقي ووجوده في التراث النقدي القديم ثم التطرق إلى الجهد النقدي وفق المعيار الأخلاقي في محاكمة أشعار امرؤ القيس عند الباقلاني ومن بعده ابن شرف القيرواني.

كلمات مفتاحية: نقد ادبي ، الاتجاه الأخلاقي ، امرؤ القيس ، الباقلاني ، القيرواني.

The ethical approach in the criticism of Imru' al-Qais's poetry according to al-Baqillani (403 AH) and Ibn Sharaf al-Qayrawani (460 AH)

M.D. Ansam Younis Hammad
Iraqi University/College of Education for Girls
Ansam.y.hammad@aliraqia.edu.iq

Abstract :

Those who follow the Arab critical heritage will notice the multiplicity of critical trends in examining poetry, including linguistic trends, artistic trends, historical trends, ethical trends, and other trends that have been the focus of critical attention. Since Imru' al-Qais and his poetry are the subject of research and criticism, as he is the pioneer of pre-Islamic poetry, and because his poetic text possesses a wealth of knowledge that requires the reader to delve into the depth of its connotations, this is what the ancient critics of the East and the West realized alike, including al-Baqillani and Ibn Sharaf al-Qayrawani, who found in his poetry critical material that is consistent with the moral direction in their view of poetry. Hence, it was necessary to stop at this trend and shed light on it in this research by stopping first at the concept of ethics in language and terminology, then delving into the emergence of this concept and its presence in the ancient critical heritage, then addressing the critical effort according to the ethical standard in the trial of the poetry of Imru' al-Qais according to al-Baqillani and after him Sharaf al-Qayrawani

Keywords: Literary criticism, ethical approach, Imru' al-Qais, al-Baqillani, al-Qayrawani.

المقدمة:

يُعدُّ امرؤ القيس أحد أبرز شعراء الجاهلية، بل يُنزل في طليعة الشعراء الذين مثّلوا الشعر العربي في أبهى صوره من حيث الفنّ والبلاغة والتصوير، وقد نال شعره اهتمامًا واسعًا من النقّاد على مرّ العصور، ومن بينهم النقّاد المسلمون الذين لم يكتفوا بتقييم فنيّاته، بل تناولوا أشعاره أيضًا من منظور أخلاقي يعكس نظرة الثقافة الإسلامية للشعر والمضمون.

ويبرز في هذا السياق كل من القاضي الباقلاني وابن شرف القيرواني، اللذين تناولا شعر امرئ القيس بأسلوب نقديّ اتخذ من الأخلاق مدخلاً رئيسًا للحكم عليه، مع اختلاف واضح في منهجهما ومقاصدهما، الأمر الذي يستدعي النظر في طبيعة هذا الاتجاه الأخلاقي في النقد، وموقف كل منهما من شعر امرئ القيس، خاصة ما يتعلّق بالمعاني المنافية للذوق الديني أو الأخلاقي كالغزل الصريح والخمر والمجون.

أهمية البحث:

تتضح أهمية هذا الموضوع من عدة جوانب منها كشف العلاقة بين الأدب والدين في النقد العربي القديم، وبيان كيف ساهمت القيم الأخلاقية والدينية في تشكيل الذوق النقدي الإسلامي. وتحليل موقفين نقديين مختلفين (الباقلاني وابن شرف)، ينتميان إلى بيئتين ثقافيتين مختلفتين (الشرق الإسلامي والمغرب العربي)، مما يفتح المجال للمقارنة بين المدارس النقدية الإسلامية. كما تسلط الضوء على أثر الثقافة الإسلامية في إعادة قراءة الشعر الجاهلي، وتحديد ملامح التفاعل بين الذوق الجاهلي والوعي الإسلامي.

أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1. تحليل الاتجاه الأخلاقي في نقد شعر امرئ القيس عند كل من الباقلاني وابن شرف القيرواني.
2. الكشف عن أوجه التشابه والاختلاف بين الناقدين في نظرتهما الأخلاقية إلى شعر امرئ القيس.
3. إبراز الخلفية الفكرية والدينية التي استند إليها كل ناقد في حكمه الأخلاقي على الشعر.

إشكالية البحث:

تتمحور الإشكالية الرئيسة حول كيفية تمثّل الاتجاه الأخلاقي في نقد شعر امرئ القيس عند كل من الباقلاني وابن شرف القيرواني، وما أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما في التعامل مع هذا البُعد؟

ويتفرع عن هذه الإشكالية عدد من التساؤلات الفرعية، منها: ما الخلفيات الفكرية والدينية التي دفعت كلا الناقدين لاعتماد هذا المنهج الأخلاقي؟ هل كان النقد الأخلاقي عند الباقلاني وابن شرف ذا طابع تقويمي أم هجومي؟

واشتمل هذا البحث على تمهيد يوضح نشأة الاتجاه الأخلاقي ووجوده في التراث النقدي القديم ثم المبحث الأول يوضح الجهد النقدي وفق المعيار الأخلاقي في محاكمة أشعار امرؤ القيس عند الباقلاني والمبحث الثاني الذي يروم الى الكشف عن الجهد النقدي وفق المعيار الأخلاقي في محاكمة أشعار امرؤ القيس عند ابن شرف القيرواني ثم تاتي الخاتمة لتبين أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما في التعامل مع هذا البُعد مع أهم النتائج .

التمهيد: نشأة الاتجاه الأخلاقي ووجوده في التراث النقدي القديم

إن المتتبع للتراث النقدي العربي يلحظ أن للنقد الأخلاقي حضور قديم فيها وإن تنوعت صوره وأشكاله بين الصدق والكذب بمفهومهما الواقعي وبين الغلو والإفراط والمبالغة والخروج عن الحد المألوف في القول أو الوصف، وهذه أبرز اتجاهات النقد الأخلاقي.

ففي العصر الجاهلي تلحظ أن العرب كانت تزعم أن المهلهل بن ربيعة كان يدعى في شعره ويتكثر في قوله أكثر من فعله، في إشارة منه إلى قضية أخلاقية وهي الصدق وخروج الشاعر عنه من خلال الإدعاء والإكثار في القول أكثر من الفعل، وهذا بعد خروجا عن القيم الأخلاقية التي يجب أن يتحلى بها الشخص بشكل عام والشاعر على وجه الخصوص وقد اشتهر بعض الشعراء الجاهليين بالتزامهم الخلقي أو الديني، وكان منهم شعراء «يتعففون في أشعارهم ولا يستهترون بالأعراض والأخلاق ولا يقاذعون في هجائهم، كان زهير بن أبي سلمى أشهرهم .... بما تضمنته أشعاره من أخلاق فاضلة وقيم نبيلة، بل إنه لا يمدح الرجل إلا بما فيه ، روي أنه كان لا يهجو إلا مضطرا « [1].

وبنزول القرآن الكريم تطور الاتجاه الأخلاقي تطورا ملحوظا فقد انزل الله تعالى آية تتعلق بموقف الأخلاق من قول الشعر قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[2] وهذه الآية الكريمة تمثل موقفا نقديا أيضا بوصف القرآن الكريم قدم «تقسيما نظريا للشعراء فأصبحوا بموجبه يصنفون تصنيفا يرتفع عن التصنيف القبلي الذي كانوا يعرفون به»[3] وهو موقف نقدي يمكن الاحتكام إليه، لأنه يؤسس العلاقة واضحة بين القول والعمل ، وقد رفد القرآن العظيم الحياة والثقافة والأدب بقيم جديدة أسهمت في تطور النقد على مستوى الشكل والمضمون ولا سيما أن الأحكام النقدية كانت متصلة بكتب الإعجاز القرآني، لذلك فقد أستعملت مصطلحاته البيانية وأساليبه الراقية وصوره الجميلة مقياسا للصياغة الأدبية الراقية، فضلا عن مضامينه المتعلقة بالصدق والموضوعية والاعتدال في القول[4] وهذه كلها أسهمت في ترسيخ الاتجاه الأخلاقي في النقد.

فالمعيار الأخلاقي قديم النشأة، عرفه العصر الجاهلي ووقع تحت تأثيره كثير من الشعراء الجاهليين، وعرف في العهد النبوي، وكان الخلفاء الراشدون أكثر تأثرا به، فعمر رضي الله عنه أحد الخلفاء الذين حكموا المعيار الأخلاقي في الشعر، «وقد هم بقطع لسان الحطيئة ؛ لأنه أقذع في هجاء الزبرقان بن بدر، غير أنه عدل عن حكمه واكتفى، بحبسه، ثم رق له وأطلق سراحه بعد أن سمع منه أبياتا يستعطفه فيها بعياله الذين خلفهم وراءه غير عائل»[5] ، وتحت تأثير المعيار الأخلاقي «كان عمر ﷺ يفضل

(1) طبقات فحول الشعراء – بن سلام الجمحي ، 69.

(2) سورة الشعراء – الآية 224 – 227 .

(3) المعايير النقدية في كتاب الموازنة للآمدي – عادل بوديار، 12 .

(4) ينظر: النقد الأدبي في آثاره و أعلامه حسن الحاج حسن، 39.

(5) الموازنة – الآمدي ، مج 1 – 24 .

الشاعر زهير ويقدمه – على غيره من الشعراء؛ لأنه وجده لا يعاظل بين الكلام، ولا يتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه»[1] ويرى الآمدي أن قول الفاروق هنا يتجاوز المعيار الأخلاقي فهو موقف يحمل معيارين معا أخلاقي وفني ، وكأنه وسع بذلك دائرة النقد الأخلاقي [2]، وهذا يعني أنه كان يرى أن الشعر سبيل لبناء الإنسان الذي لا ينجح في حياته إلا بسلوكياته وأخلاقه الفاضلة، وبمثل هذه النظرة ازدهر المعيار الأخلاقي في ظل الإسلام، وأخذ حجما أكبر في العملية النقدية وفي ترسيخ فكرة النظرة الإسلامية في النقد، ولا ريب في ذلك؛ لأن الإسلام دين عماده الأخلاق وهي من أهم الأسس التي يقوم عليها الدين[3] .

أما في كتب النقد فلم يرد ذكر المعيار الأخلاقي في –أول محاولة مدونة ومنهجية في النقد القديم –حينما احتكم ابن سلام الجمحي في طبقاته . إلى معايير الجودة والكثرة والقدم، فلم يجعل من بينها معيارا للأخلاق غير أن ابن سلام لم يلغ المعيار الأخلاقي على مستوى الممارسة والحكم؛ فقد أورد في مقدمة كتابه طبقات فحول الشعراء حديثا عن صنفين من الشعر –العربي القديم كان لمضمونهما صلة واضحة بالجانب الأخلاقي، وذكر أن من الشعراء من كان يتأله في جاهليته ويتعفف في شعره ولا يجاهر بالفواحش، ولا يتهكم في الهجاء ومنهم من كان ينعي على نفسه ويتعهر[4]. و«كأن ابن سلام أراد بالتعفف تجنب الشاعر –الجاهلي فاحش اللفظ والمعنى في هجائه وفي غزله، وأراد بالتعهر أن يعمد الشاعر إلى الفاحش من الألفاظ والمعاني ويجعلها في هجائه وغزله»[5]. وينتمي ابن قتيبة إلى زمرة النقاد الاخلاقيين –فليس عجبا وهو القاضي والمحدث والفقيه –وقد أفصح عن منهجه في مقدمة كتابه عيون الأخبار بقوله: «إن هذا الكتاب – وان لم يكن . في القرآن والسنة وشرائع الأخلاق وعلم الحلال والحرام – دال على معالي الأمور مرشد لكريم الأخلاق زاجر عن الدناءة، ناه عن القبيح، باعث على صواب التدبير وحسن التقدير»[6]. وقد تجلى اهتمامه في المعيار الأخلاقي بتعليقه على المعنى الشريف الذي يصدر عن خلق سام ، وبلفظ حسن، وضرب لذلك مثلا بشعر أبي ذؤيب :

والنَّفْسُ راغبة إذا رغبتها

وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقنع[7]

ولقد رد ابن طباطبا (223هـ) عيار الشعر إلى «موافقته للحال التي تنظم من أجلها، وفهم ابن طباطبا هذه الحال فهما أخلاقياً مباشرا» [8]. واعتمد المعيار الأخلاقي المتمثل بالصدق ودعا إلى اعتماده في الترجيح والحكم ومن ثم فإنه حاول الترجيح بين رد حسن الشعر إلى الصياغة وحتمية الاهتمام بالمعنى؛ وهو بذلك يوازن بين تصوراته الأخلاقية عن المعنى، وتسليمه بأهمية الصياغة ودورها في صنعة الشعر، فلا يتعارض التسليم بأن المعنى الواحد يمكن أن يعبر عنه بطرق متعددة تتفاوت قيمتها تبعا الصياغتها مع الوعي بوجود مستويات متعددة للمعاني ذاتها من حيث القيمة[9] فابن

(1) الموازنة ، ص 214 .
(2) ينظر: النقد بين الفن والأخلاق – مريم النعيمي، ص 16.
(3) ينظر: التفكير النقدي عند العرب – عيسى علي العاكوب ، ص400.
(4)التفكير النقدي عند العرب ، ص 444 .
(5) المعايير النقدية في كتاب الموازنة للآمدي ، 18 .
(6) عيون الأخبار – ابن قتيبة ، المقدمة ، ص 1 .
(7) أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره ، نورة الشملان، ص 56 .
(8) مفهوم الشعر في التراث النقدي – جابر عصفور، ص 24.
(9) ينظر: دراسات نقدية في الشعر العربي،ص 211 .

طباطبا ينظر الى الشعر بمنظور الصدق، ويرى أن شعراء الجاهلية والإسلام قد وضعوا أشعارهم على هذا الأساس، وما اعجب ابن طباطبا بشعر زهير الا التوافق الصياغة مع المعنى الأخلاقي والحكمة الموجزة التي يمكن أن تساهم في البناء الأخلاقي للفرد فتصبح القصيدة بذلك قادرة على ممازجة الروح، وعلى تعديل حالات النفس،[1] ويبدو أن ابن طباطبا يوازن بين الاتجاه الاخلاقي والاتجاه الفني في النقد وبهذا فأنه انضج فكرا من سابقيه برأي جابر عصفور .

ويبدو أن الاتجاه الاخلاقي كان ملازما للعملية النقدية في تراثنا النقدي ولكن بنسب حضور متفاوتة، فلم يكن هو المعيار الوحيد في النقد كما أنه لم يغب عن عيار النقد مطلقا . والحديث عن نشأة النقد الأخلاقي يطول غير أن ما يعنينا في بحثنا هذا هو الوقوف عند جهد الباقلاني وابن شرف القيرواني في ميدان النقد الأخلاقي ومدى افادتهما من تراث السابقين في هذا المجال، وهما يقفان عند نصوص امرؤ القيس الشعرية.

المبحث الاول : الاتجاه الأخلاقي في نقد أشعار امرؤ القيس عند الباقلاني

الباقلاني هو أبو بكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلاني. ولد في البصرة عام 338 هـ، وأقام في بغداد. فغدا أحد المع متكلميها على المذهب الأشعري. وضع كثيراً من المصنفات التي تظهر على كعبه في الفقه والكلام والجدل، مثل «الإنصاف» و«التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والخوارج والمعتزلة» و «إعجاز القرآن» وتوفي في بغداد عام 403 هـ .[2]

ويعد الباقلاني احد أهم المتكلمين اشتهروا بإثراء مبحثي البلاغة والنقد العربيين، في خضم انشغالهم بدراسة مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم. وعلى الرغم من أنه لم يتعرض الشعر في إعجاز القرآن، دارساً أو ناقداً له في ذاته بقدر ما أراد أن يثبت التفاوت في نظم البشر مقارنة بالإحكام في نظم القرآن[3]، إلا أن هذا التعرض أسفر عن معالجة نقدية تطبيقية استندت إلى فهم أخلاقي للشعر.وقد ذهب امرؤ القيس بوجه خاص، ضحية هذه المقارنة ، لأنه كبير الشعراء وشيخهم الذي يعترفون بفضله، وقائدهم الذي يأتمون به وإمامهم الذي يرجعون اليه، فإذا أظهر الباقلاني سقوط منزلته عن منزلة نظم القرآن لم يحتج إلى الكلام على شعر كل شاعر وكلام كل بليغ، فالقليل يدل على الكثير [4]

يستهل الباقلاني معالجته منوهاً بامرىء القيس، الذي أبدع في طرق الشعر أموراً اتبع فيها من ذكر الديار والوقوف عليها، إلى ما يتصل بذلك من البديع الذي أبدعه، والتشبيه الذي أحدثه، والمليح الذي تجد في شعره، وقد بلغ الأمر بالنقاد والأدباء انهم يوازنون بشعره أشعار الآخرين من قدماء ومحدثين، فربما فضلوه عليهم أو فضلوهم عليه، وهذا التفاوت أمر بديهي، كما يرى الباقلاني، لأن الشعر مجال واسع للتنافس الآدمي «فكلٌّ يضرب فيه بسهم ويفوز فيه بقدح...[5].

ويصرح الباقلاني بأنه سوف يتوقف بإزاء أجود أشعار امرىء القيس وهي المعلقة ، لما أضاف اليها النقاد والأدباء من أمثال فسموها المعلقات السبع، وقرنوا بها نظائرها، حتى قالوا :

(1) ينظر: مفهوم الشعر في التراث النقدي ، ص 24
(2) وفيات الأعيان ابن خلكان ، 4/ 269 – 270
(3) اعجاز القرآن الباقلاني ، ص 278 – 279
(4) المصدر السابق، ص 328
(5) المصدر السابق، ص 242–243

إن لفلان لامية مثلها[1]. وأول ما يستوقفه مطلع اللامية :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فيذكر أن الذين يتعصبون له يقولون : إنه أبدع لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكي وذكر العهد والمنزل والحبيب، وتوجع واسترجع في بيت واحد فقط. وينبه القارىء إلى أنه تعمد تبيان ذلك حتى لا يعتقد البعض بأنه غافل عما قال الآخرون، مع أنه ليس في البيتين – كما يرى شيئا سبق إليه امرؤ القيس شاعراً أو تقدم به صانعاً في اللفظ والمعنى[2].

فقد استوقف من يبكي لذكرى حبيبه وهي لا تقتضي بكاء الخلي، وكان أولى به أن يطلب من هذا الخلي أن يسري عنه، فإن كان هذا الخلي مطلوباً وقوفه لانه عاشق ايضا، فإن هذا الطلب يصح من وجه لكنه يفسد من وجه آخر، إذ من السخف أن لا يغار الشاعر على حبيبه ويدعو غيره الى التواجد عليه. وينعى الباقلاني على امرىء القيس تطويله في ذكر المواضع وتبجحه بما أطعم أضيافه كما في قوله:

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمال
ترى بعر الأرامِ في عرصاتها
وقيعانها كانهُ حَبُّ فلفل
وقوفاً بها صحبي علي عطيهم
يقولون لا تهلك أسى وتجمل
وإن شفائي عبرة إن سفحتها
وهل عند رسم دارس من معول
كدينك من أم الحويرث قبلها
وجارتها أم الرباب باسل
ففاضت دموع العين في صبابة
على النحر حتى بل دمعي محملي
الا رب يوم لك منهن صالح
ولا سيما يوم بدارة جلجل
ويوم عقرت للعذارى مطيتي
فيا عجباً من رحلها المتحمل
يظل العذارى يرتمين بلحمها
وشحم كهداب الدمقس المفتل[3]

ويتوقف عند قوله :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة
فقالت : لك الويلات إنك مرجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً
عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل[4]

فيقرر أن في قوله : (دخلت الخدر خدر عنيزة) تكرار هدفه إقامة الوزن ليس إلا، وان قوله في المصراع الثاني من البيت كلام مؤنث من كلام النساء. ويعد قوله تقول وقد مال الغبيط بنا معاً، تكراراً أيضا لا فائدة فيه إلا استكمال الوزن، فحكاية قولها الأول كاف. ناهيك عن ان المصراع الثاني هويا هو الآخر من باب التائث الذي لا يقع إلا للنساء[5].

أما قوله :

فقلت لها: سيري وأرخي زمامه
ولا تبعديني من جَناكِ المعلل
فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فالهيتها عن ذي تمائم مُحوِلٍ[6]

فيرى الباقلاني أن البيت الأول متهافت لأنه من عبارات المنحطين في الصنعة، وأن البيت الثاني هو

(1) المصدر السابق، ص 242
(2) المصدر السابق، ص 244 .
(3) ديوان امرؤ القيس ص 8 – 11 .
(4) المصدر السابق، ص 11 .
(5) اعجاز القرآن الباقلاني ص 253 .
(6) ديوان امرؤ القيس ، ص 12 .
(2) اعجاز القرآن الباقلاني ، ص 255 – 256 .

مما عابه أهل العربية على امرىء القيس، وتقدير معناه أنه زير نساء يفسدهن ويلهيهن عن حبلهن ورضاعهن، وذلك لأن الحبلى والمرضعة أبعد ما تكون عن الغزل وطلب الرجال. كما أن كون امرىء القيس مفسدة للنساء لا يوجب له وصلهن وترك ابعاد هن إياه، بل يوجب هجره والاستخفاف به لسخفه ودخوله كل مدخل فاحش، وركوبه كل مركب فاسد . ويختم الباقلاني تعليقه على هذا البيت قائلاً وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم عن مثله ويأنف من ذكره. ويستأنف ازراءه على امرىء القيس في الأبيات:

إذا ما بكي من خلفها انصرفت له

بشق وتحتي شقها لم يحول

ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت

علي وآلت حلفة لم تُحلل[1]

فالبيت الأول غاية في الفحش والسخف إذ يتساءل الباقلاني قائلاً: ما الفائدة المتأتية من تصريحه لعشيقته بارتكاب هذه القبائح؟ ويجيب نفسه : إن هذا ليبغضه إلى كل من سمع كلامه. ويوجب له المقت. وحتى لو كان صادقاً لكان ذلك قبيحاً منه.

ولا فائدة كما يرى الباقلاني، من تصريح أمرىء القيس بتمنع حبيبته عليه وتشددها وتعسرها في موضع يسميه ويصفه. ويستطرد قائلا: إن في شعر المحدثين من شعراء العباسيين من جنس هذا الغزل ما يذوب معه اللعب وتطرب عليه النفس ويشمئز منه القلب وليس فيه شيء من الإحسان والحسن». [2] ويعود إلى ترديد اتهامه لامرىء القيس بالتأنث والرقة والتخنث، حين يعرض لقوله :

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل

وإن كنت قد از معت صرمي فاجملي

أغرك مني ان حبك قاتلي

وأنك مهما تأمري القلب يَفْعَلِ

ويرد على من يقول بأن مخاطبة النساء بما يلائم طباعهن هو أوقع وأغزل بأن الشعراء المعدودين لم يحيدوا في هذه المواقف، عن الرصانة في أقوالهم، وعاب عليه في البيت الثاني أنه صرح بأن حبيبته لا تعيره اهتماماً وأن حبها سوف يقتله.[3] وتعليقا على بيت امرىء القيس:

فإن كنت قد ساءتك مني خليقة

فسلي ثيابي من ثيابك تنسل[4]

يقول إن كل ما أضافه لنفسه ووصفها به ليس سوى سقوط وسفه وسخف يوجب قطعه من قبل جبيبه، ولكنه يورده مورد من ليست له خليقة توجب هجرانه، وأنه مهذب الاخلاق شريف الشمائل [5] ويرى الباقلاني أن امرأ القيس لم يأت بجديد حينما شبه عشيقته ببيضة الخدر في قوله:

وبيضة خدر لا يرام خبازها

تمتعت من لهو بها غير معجل

لأن هذا التشبيه كان دائراً في أفواه العرب، ولأن هذا البيت لم يضف معنى جديداً إلى الأبيات التي سبقته وتضمنت معنى المطاولة في الغزل [6] كما يتعقبه في أبياته التي يقول فيها :

فجئت وقد نصت لنوم ثيابها

لدى الستر إلا لبسة المتفضل

فقالت : يمين الله مالك حيلة

وما إن أرى عنك الغواية تنجلي

(1) ديوان امرؤ القيس ، ص 12

(2) اعجاز القرآن الباقلاني ، ص 255-256

(3) المصدر السابق، ص 257.258

(4) ديوان امرؤ القيس ، ص 13

(5) اعجاز القرآن الباقلاني ، ص 258

(6) اعجاز القرآن الباقلاني ، ص 258

فقمت بها أمشي تجر وراءنا
على إثرنا أذيالَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ
فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى
بنا بطن خُبٍ ذي حِقافَ عَقَنقَلِ
هصرتُ بغصني دوحة فتمايلت
علي هضيم الكشح ريا المخلخل
مهفهفة بيضاء غير مفاضة
ترائبها مصقولة كالسجنجل
تصد وتبدي عن أسيل وتتقي
بناظرة من وحش وجرةً مُطفل
وجيد كجيد الريم ليس بفاحش
إذا هي نصته ولا بمعطل[1]

فياخذ عليه خلطه في النظم، لأنه ذكر التمتع بحبيبته، وذكر الوقت والحال والحراس، ثم ذكر صفتها لما دخل عليها ووصل اليها وقد أبقت ثوباً واحداً، فاخر ما كان ينبغي أن يقدم. كما يأخذ عليه إضافته (وراء نا) لأن (على إثرنا) تكفي، فالذيل إنما يجر وراء الماشي، ومع ذلك فهو يرى أن هذا البيت لو سلم من الزيادة لكان حسناً.

ويسترعي انتباهنا إلى نشوز البيت الذي يقول فيه : (فلما أجزنا ... الخ،) لأن الأبيات السابقة عليه سلسة قريبة تشبه كلام المولدين والعامة . اما هو ففيه إغراب ولفظ وحشي معقد. كما أخذ عليه أنه لم يضف شيئاً جديداً إلى ما يتكرر على السنة العامة ، بخصوص الكشح المهضوم ناهيك عما ارتكبه امرؤ القيس من خطأ، حينما وصف حبيبته بالبياض ثم خصص ترائبها بالإضاءة، مع أننا نعتقد أنه قصد إلى أن ملمسها ناعم كالمرآة.

إن الباقلاني يسد بهذا النقد، ما رآه ناقصاً لم يستوف ولم يستقص في شعر امرىء القيس. وقد حفزه على ذلك، تبيان التفاوت بين أشعار الشعراء من جهة، وبين أبيات الشاعر الواحد من جهة ثانية. ولا نعدم لديه رأيا لافتا بخصوص هذا التفاوت ذلك أنه يعتقد بأن مازق الشعر والشعراء، يكمن في انسياق الشعراء خلف الألفاظ والتلاعب بها، بدلاً من تدبر المعاني وترتيبها وإنزالها منازلها، مصداقا لقوله تعالى: (والشَّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ) أي أنهم يتبعون القول حيث توجه بهم واللفظ كيفما أطاعهم، ويحلون المعاني بقدر تبعيتها للألفاظ، خلافًا لقانون البيان القائم على ترتيب المعاني[2]

ولعل أكثر ما يسترعي انتباهنا إلى هذه المعالجة النقدية، اتجاهها إلى تناول قصيدة واحدة لامرىء القيس، بدلاً من التهويم بين أبيات متعددة لأكثر من شاعر. وقد استندت إلى معايير أخلاقية بحتة لم يحاول الباقلاني أن يموهها باستطرادات طويلة تتصل بالقيمة الغنية فالهدف الرئيس لهذه المعالجة هو نقض الشعر مثلاً أعلى للبيان، وابراز النظم القرآني نموذجاً بيانياً متفرداً لا سبيل إلى مطاولته، وإن كان عرض لبعض المسائل الفنية، فانتصر للشعر على النثر في مقدمته التي ساقها بين يدي معالجته، ورأى أنه يمكن للشعر أن يكون أبلغ من النثر. إذا صادف شروط الفصاحة، وتضمن أسباب البلاغة ويستشهد على ذلك بأن معظم براعة العرب في الشعر، ولا نجد في منثور قولهم ما نجده في منظومهم، ويحكي عن المتنبي انه كان ينظر في المصحف، فدخل عليه بعض أصحابه، فأنكر نظره فيه، لما كان يعهده فيه من سوء الاعتقاد، فقال له المتنبي: هذا المكي على فصاحته كان مفحماً، ويستنتج الباقلاني من هذه الحكاية – إن هي صحت كما يقول – أن المتنبي كان يعتقد أن الفصاحة في الشعر

(1) ديوان امرؤ القيس ، ص 14 – 16 .

(2) اعجاز القرآن الباقلاني ص 345–344 .

أمكن وأبلغ من النثر.[1]

ومن الملاحظ ان الباقلاني استند إلى مفهوم الفحولة ضمناً، حينما ركز على تخنث امرىء القيس ومبالغته في الترقق والتأنث. وقد استثمر هذا المفهوم استثماراً ذكياً، ملمحاً من آن لآخر إلى أن الشعراء المعدودين لا ينزلقون إلى هذا المنزلق حتى في الجاهلية، بدلاً من إشهار سيف الشريعة في وجه رجل عاش في العصر الجاهلي ولم يدرك الإسلام وقد أسفر استناده الى هذا المفهوم عن استبعاد معظم أبيات المعلقة إلا بيتًا لو سلم له من عشرين بيتا وكان بديعاً ولا عيب فيه، فليس بعجيب، لأنه لا يُدعى على مثله أن كلامه كله متناقض ونظمه كله متباين، وإنما يكفي أن نبين أن ما سبق من كلامه إلى هذا البيت، مما لا يمكن أن يقال أنه يتقدم فيه أحداً من المتأخرين، فضلاً عن المتقدمين [2] . فالباقلاني إذن، لا ينكر براعة امرىء القيس في بعض الأبيات، ولكنه ينكر أن يكون شعره متناسباً في الجودة ومتشابها في صحة المعنى واللفظ ، إنه شعر يتراوح بين وحشي غريب مستنكر ومهمل مستكره وكلام سليم متوسط، وعامي سوقي في اللفظ والمعنى، وحكمة حسنة، وسخف مستشنع مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[3].

المبحث الثاني : الاتجاه الأخلاقي في نقد أشعار امرؤ القيس ابن شرف القيرواني

شهدت القيروان منذ أواخر القرن الرابع، نهضة علمية وثقافية استمرت قرابة نصف القرن، وأظلت نخبة من المثقفين كتاباً وشعراء ونقاداً ولغويين. ويعد أبو عبدالله محمد بن شرف المولود في القيروان عام 390هـ أحد المع هؤلاء المثقفين، فقد تتلمذ على علمائها الكبار المشهورين من أمثال أبي الحسن القابسي وأبي عمران الفاسي والقزاز وأبي اسحق الحصري واتصل برئيس ديوان الإنشاء فقدمه إلى صاحب القيروان وراعي نهضتها المعز بن باديس الصنهاجي، فسلكه في شعراء البلاط، حيث استحكمت بينه وبين ابن رشيق منافسة قادت إلى مهاجاة ، لم تخل من فائدة، إذ هي تمخضت عن تأليف ورسائل تضمنت وجهات نظر متعارضة. وفيما عددت المصادر رسائل وضعها ابن رشيق في هجاء ابن شرف مثل «رسالة ساجور الكلب» و«رسالة قطع الأنفاس»، و«رسالة نجح الطلب» و«رسالة رفع الإشكال ودفع المحال»، «وكتاب نسخ الملح وفسح اللمح»، فقد ذكر المترجمون لابن شرف كتابين هما «أعلام الكلام» و «أبكار الأفكار» وأثنوا عليهما اثناء حسناً، إلا انه لم يصلنا منهما سوى فضلة من الثاني، وقطعة طويلة ذكر ابن بسام أنها مقامة تتسم بالطول لكنها لا تدعو للملل، خصصها ابن شرف للمستطرف من أخبار الأدباء وذكر الشعر والشعراء وقد نشرت هذه المقامة تحت عنوان أعلام الكلام، ثم نشرت بعد ذلك تحت عنوان «رسائل الانتقاد»[4].

(1) المصدر السابق، ص 226 – 237 .

(2) البيت هو : وما رقت عيناك إلا لتضربي بسهميك في اعشار قلب مقتل.

(3) سورة النساء– الآية82

(4) ينظر ترجمته عند: الذخيرة لابن بسام. م 1. ج 4 / 238–169. خريدة القصر العماد ، ق 4 ج 2 / 120.110 ، الوافي بالوفيات الصفدي 101–97/ 3

لقد أعجب ابن رشيق بأمرىء القيس وزهير بن أبي سلمى أيما إعجاب، وقد عبر عن ذلك في غير موضع من كتابيه العمدة وقراضة الذهب، وقد تجاوز بخصوص امرىء القيس عن تلك الاعتبارات الاخلاقية التي ساقها بعض النقاد في خضم تناولهم لشعره، وأكد بذلك انحيازه إلى جانب القيمة الفنية، وسواء كان ابن شرف منحازا فعلا للقيمة الأخلاقية، أو أنه أراد أن يتخذ من امرىء القيس وزهير مسوغاً للنيل من ابن رشيق، فإن رسائل الانتقاد، تصلح أن تكون نموذجاً تطبيقياً في النقد الأخلاقي المستند إلى تحليلات نفسية عميقة.

ورسالة الانتقاد عبارة عن حوار بين شخصين أحدهما ابن شرف صاحبنا ، والآخر يدعى أبا الريان الصلت بن السكن بن سلامان. وقد قول ابن شرف هذا الشخص المخترع كل ما يريد أن يقوله هو ، محتفظاً لنفسه بدور السائل البريء، إمعاناً في ايهامنا بموضوعيته وحياده وبعد أن استعرض على لسان أبي الريان، عدداً وافراً من شعراء المشرق والمغرب القدماء والمحدثين، نراه يتقدم خطوة إلى مرامه فيخاطب ابا الريان قائلاً: يا أبا الريان لقد رأيت لك نقداً مصيباً ومرمى عجيباً، ولقد أرغب في أن أنال منه نصيباً ، فيقول له ابو الريان: النقد هبة الموالد وفيه زيادة طارف إلى تالد ولقد رأيتُ علماء بالشعر ورواة له ليس لهم نفاذ في نقده ولا جودة فهم في ردية وجيده وكثير ممن لا علم له يفطن إلى غوامضه وإلى مستقيمه ومتناقضه [1]. وإذا تذكرنا أن العنوان الفرعي لكتاب العمدة هو (في محاسن الشعر وآدابه ونقده) ، صار من الممكن أن نعجب لقدرة ابن شرف على النيل من ابن رشيق دون أن يصرح بذلك.

ونراه يتقدم خطوة أخرى، فيفضي لأبي الريان برغبته في أن يتعرف منهاجه في النقد. فيبادر هذا إلى القول بأن أول ما ينبغي للمرء أن يعتمده، عدم المسارعة في الاستحسان أو الاستقباح قبل إطالة الفكر، ويحذر من الانبهار بجزالة الألفاظ دون تدبر المعاني، أو الاستهانة بالمعاني إذا أدرجت في الفاظ مبتذلة، على أن أبا الريان لا يلبث أن يستدرك قائلاً: «وتحفظ عني شيئين: أحدهما أن يحملك إجلال القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تستمتع له والثاني أن يحملك إصغارك المعاصر المشهود على التهاون بما أنشدت له»[2]. لقد مهد ابن شرف بهذا الاستدراك للنيل من امرىء القيس الذي يعد أقدم الشعراء عصراً، ومقدمهم شعراً، حتى اتسعت في فضلة الأقوال، فظن بعض العامة – لعله يعني ابن رشيق – ان جواد شعره لا يكبو وحسام نظمه لا ينبو[3].

فما كان أغنى امرىء القيس – يقول ابن شرف – حين قال في معلقته :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة

فقالت لك الويلات إنك مرجلي

نعم ما كان أغناه عن الإقرار بهذا التوبيخ الشنيع، إذ هو ممن لا يجهل ما سوف يدركه من العار جراء وصمه به لما فيه من النقائص فقد دخل عليها متطفلاً دون استئذان، وهذه ليست من شيم الكرام، وبادرته بعبارة «لك الويلات»، وهي لا تقال إلا لإنسان خسيس الأصل ولا يقابل بها رجل رئيس في قومه. فإن أراد أحدهم أن يبرر قولها له بأنها كانت أعلى منه منزلة أجيب بأن السيدة

(1) رسائل الانتقاد ابن شرف ، ص 38 .

(2) رسائل الانتقاد ابن شرف ، ص 29 .

(3) المصدر السابق، ص 40 .

الكريمة لا تركب بعيراً ضعيفاً، حتى إذا شاركها في ركوبه أحد آخر لم يعد يقدر على الحمل، وخشيتها على بعيرها الفقير الحقير تدل على أنها أقل منه منزلة.[1] وإن أراد البعض أن يعتذر عنه بالقول: إن ما صبره على قولها عشقه لها ، قيل له: كيف يكون كذلك وهو الذي يخاطبها قائلاً:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضعا

فالهيتها عن ذي تمائم محول

إذ المعروف عن العشاق اكتفاء الواحد منهم بعشيقة واحدة وأطراح سواها، مثل قيس بن الملوح صاحب ليلى وقيس بن ذريح صاحب لبنى، وغيلان صاحب مية، وجميل صاحب بثينة، ولهذا فإن امرأ القيس، ها هنا، لم يعد كونه فاسقاً يريد أن يفسق بها وليس عاشقاً على أن هذا يهون إذا ما قرناه باتيان الحبلى والمرضع، لأن الإقرار به هو (أهجن هجنة عليه وأسخن سخنه لعينيه)، لأسباب تتعلق بالحبلى وأخرى تتعلق بالمرضع: أما الحبلى فقد زهد الله نفس الرجل فيها لان الحبل علة تشبه الاستسقاء، وهو مصحوب بتغير اللون وفقدان الشهية والعصبية الزائدة وسوء الرائحة، وهذه الأسباب كفيلة بتزهيد نفس العامي في الحبلى، فكيف بنفس ملك؟! علاوة على أن ذكور البهائم تتجنب الحبالي من أجناسها، ولا تقربها حتى تضع أحمالها أو تفارق ولدانها. وأما المرضع فيزهد النفس فيها ما يلحقها من أوضار رضيعها وهزالها واشتغالها برضيعها عن أحكام اغتسالها، لا بل إن في تعلق الطفل بامه كما يفهم من قوله فالهيتها عن ذي تمائم محول ما يدل على أن الأم هي مرضعة ابنها وليس له مرضعة سواها، مما يدل على ضعتها وفقرها، فهي امرأة لا يطمح إليها[2].

وينتقل بنا ابن شرف إلى القصيدة التي يقول امرؤ القيس في مطلعها :

الا عم صباحا أيها الطلل البالي

وهل يعمن من كان في العصر الخالي[3]

ويتوقف عند هذه الأبيات التي صوّر فيها امرؤ القيس تسلله إلى إحدى عشيقاته قائلاً :

سموت إليها بعدما نام اهلها

سمو حباب الماء حالاً على حال

فقالت : لحاك الله إنك فاضحي

الست ترى السمار والناس أحوالي

حلفت لها بالله حلفة فاجر

لناموا فما إن من حديث ولا صَالِ

فيعود ليؤكد هوان قدر الشاعر عند النساء وعند نفسه، لأنه ارتضي أن تقول له (الحاك الله) كما ارتضى أن تقول له السابقة ..(لك الويلات)، فأقر على نفسه بالكره والطرد وانعدام الرغبة في وصاله أو الحرص على معاشرته. ولا يفوت ابن شرف طبعاً، أن يصف اعتراف امرىء القيس بالحنث والفجور بأنه «أخلاق لا خلاق لها»[4] .

وينعى عليه في موضع آخر تصريحه بما يكتمه الأحرار، ولا يخوض فيه إلا الأوضاع الأشرار كقوله :

ولما دنوت تسديتها

فثوبا نسيت وثوبا أجر[5]

ويتساءل قائلاً : فأي فخر في الإقرار بالفضيحة على نفسه وعلى من يحب ؟ وأين هذا التبذل من قول الخريمي (ت 212هـ):

(1) المصدر السابق، ص 40 – 41 .

(2) المصدر السابق، ص 42.41

(3) ديوان امرؤ القيس ص 29.27

(4) رسائل الانتقاد ابن شرف ، ص 22.31

(5) ديوان امرؤ القيس ، ص 159

ولا أسأل الولدان عن وجه جارتي

بعـيداً ولا أرعاه وهو قريب[1]

ولا يدخر ابن شرف وسعاً ، في توجيه بعض الأخبار المروية عن أمرىء القيس، توجيها نفسياً لافتاً، فهو يفيد من تلك القصة التي تناقلها الرواة ومفادها أن امرأ القيس كان مكروهاً من النساء لان أداءه الجنسي كان ضعيفًا، مما اضطر زوجته إلى تطليقه[2]. وحيث أنه حرم النساء فعلاً، فقد راح يعوّض عن هذا الحرمان بادعائه قولا . ويدلل على ما يقول بحالات أخرى أدى الشعور بالنقص لدى أصحابها إلى إدعاء الزنا إفكا وزوراً وكذبا وفجور[3]. كالفرزدق الذي كان يكثر في شعره من ادعاء الزنا واستدعاء النساء وهن (أغلظ عليه من كبد بعير) ، ومع ذلك راح يقول :

هما دلتاني من ثمانين قامة

كما انقض باز اقتم الريش كاسرة[4]

فقرعه جرير قائلاً :

تدليت تزني من ثمانين قامة

وقصرت عن باع العلى والمكارم[7]

وكسحيم عبد بني الحسحاس بن هند الذي لو أخليت الأرض، ولم يبق رجل في الطول ولا في العرض إلا هو الظل كبعرة بعير ومع ذل ع ذلك نراه يقول :

واقبلن من أقصى البيوت يُعدِنَني

نواهد لا يعرفن خلقا سوائيا

يَعِدُن مريضا من هيجن ما بِهِ

إلا إنما بعض العوائد دائيا

توسدني كفا وتحنو بمعصم

علي وترمي رجلها من ورائيا[5]

وكأن هذين الدليلين على أن (الممنوع من الشيء حريص عليه، مدع فيه، والمعتد بما يهواه . كاتم له مستغن ببلوغ مناه، لم يفيا بما أراد ابن شرف التدليل عليه، فاستوفى ذلك بدليل ثالث يظهر العكس من الشعور بالنقص، على طريقة وبضدها تتعرف الأشياء، فأشار إلى المرقش الأكبر مثالاً على الشعور بالاكتفاء مقابل الشعور بالنقص فهذا الشاعر رغم جماله ورغبة النساء فيه وسهولة وصوله اليهن لم يكن يصرح في أشعاره بتفاصيل مغامراته العاطفية[6].

ترتد أهمية ابن شرف – ومن ثم معالجته التي استعرضناها – إلى أنه اهتم بتتبع نموذج قائم بذاته في الأدب، ولم يكتف كغيره من النقاد بالتعليق العابر على هذا البيت أو ذاك، وعلى الرغم من أنه أفاد من بعض الملاحظات الجزئية المتناثرة في كتب النقاد السابقين، إلا أنه تميز بتعقب امرىء القيس في غير موضع من قصائده، مما أوحى برغبته في تقديم رؤية شاملة في النقد الأخلاقي وليس مجرد وجهة نظر جزئية.

ولا شك في أن ابن شرف بالغ في تعقب امرىء القيس مبالغة شديدة، حد أنه ركب مركب المتكلمين والفلاسفة فراح يصوغ آراءه في شعر امرىء القيس على طريقة المناطقة فإن قالوا... قلنا، وقد أدى فهمه الحرفي للمضمون وتطلبه الشديد للمنطق في الشعر، إلى استنتاجات ساذجة كقوله بأن عُنيزة ليست من سيدات القوم، لأنها خافت على بعيرها الهلاك حينما شاركها في ركوبه

(1) رسائل الانتقاد ابن شرف ، ص 43.
(2) الامالي المرتضى، 1/ 508
(3) رسائل الانتقاد ابن شرف ، ص 43
(4) ديوان الفرزدق ص 189
(7) ديوان جرير، ص 667
(5) رسائل الانتقاد ابن شرف ، ص 44
(6) المصدر السابق، من 44

امرؤ القيس، مع أنها قصدت من قولها .... إنك مرجلي إلى التعبير عن جزعها وخوفها من جراته...

ومما يسترعي الانتباه، أن ابن شرف أسس أحكامه النقدية على مسوغات طبيعية وغريزية واجتماعية، وليس على نواة دينية ، وكأنه نظر بعين الاعتبار إلى أن امرأ القيس شاعر جاهلي، فهو في معرض توبيخه امرأ القيس لاعترافه بإتيان الحبلى والمرضع، لا يعمد إلى القطع بأن الزنا حرام شرعاً، لكنه يستند إلى تقبيح هذا الفعل استناداً إلى جملة أمور تعرض للمرأة فتنفر الرجل منها كما نلاحظ أيضاً أن نقمته على امرىء القيس ترتد في معظمها إلى تصريحه واعترافه وإقراره بما فعل خلافًا لما تقتضيه اخلاق الأحرار، وليس إنكاراً لما فعل. فهل تراه كان سيغير رأيه ، لو أن امرأ القيس فعل ما فعل، ثم كتم ذلك أسوة بالمرقش الأكبر الذي كان (كثير الاجتماع بالنساء والوصول اليهنه) ؟

ليس هذا هو المأخذ الوحيد الذي أدته اليه شدّة المعاضلة وتطلب الخلاف، فقد أخطأ أيضاً حينما ظن أن ملكا مثل امرىء القيس ما كان عليه أن يصرح بتوبيخ عشيقته له حين دخل هودجها، لأن في ذلك انتقاصاً لقدره، وحين ظن أن فقر المرأة المرضع سبب كاف لصرف الرجل عن حبها وأن سواد بشرة سحيم عبد بني الحسحاس سبب وجيه لإعراض النساء عنه، ذلك أن هذه الظنون مجتمعة تظهر موقفا طبقياً وعنصرياً جلياً عند ابن شرف ما كان ليظهر لولا تعمده المخالفة والإزراء، فمن قال بأن الملوك ليسوا بشراً يحبون كما يحب غيرهم؟ ولا يتذللون لمن يحبون كما يتذلل غيرهم؟ ومن قال بأن المرأة الفقيرة ليست مطمحاً ؟ وأن الرجال السود لم يحظوا بحبيبات ؟

وما لم يكن ابن شرف قد قصد إلى أن يمثل لنا بهذه الأبيات، فنقيس ما لم يختاره على ما اختاره، فإن ثمة أبياتاً كثيرة سوى التي أوردها وعلق عليها، تفوقها جرأة وتصريحاً. إذ من الملاحظ أن الأبيات التي توقف عندها ، وتوقف عندها غيره، لم تتضمن سوى الإخبار السريع الوامض عما حدث كقول امرىء القيس:

ويوم دخلت الخدر خدر عُنيزة
فقالت تلك الويلات إنك مرجلي
فمثلك حبلى قد طرقت ومرضعاً
فالهيتها عن ذي تمائم محول

أما الأبيات التي لم يتوقف عندها ابن شرف، فتتضمن وصفا تفصيلياً لما حدث مثل :

تقول وقد مال الغبيط بنا معا
عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها: سيري وأرخي زمامه
ولا تبعديني من جناكِ المعلل
إذا ما بكي من خلفها انحرفت ليه
بشق وشق عدنا لم يُحوّل
ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت
علي والت حلفة لم تحلل
فجئت وقد نصت لنوم ثيابها
لدى الستر إلا لبسة المتفضل
فقالت يمين الله مالك حيلة
وما إن أرى عنك العماية تنجلي[1]

وأما قصيدة الا عم صباحاً أيها الطلل البالي، التي اختار منها ابن شرف:

سموت اليها بعد ما نام أهلها
سمو حَبَابِ الماء حالاً على حال

(1) ديوان امرؤ القيس ، ص 15-11 .

فقالت سباك الله إنك فاضحي
الست ترى السمار والناس احوالي
فقلت يمين الله أبرح قاعداً
ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي
حلفت لها بالله حلفة فاجر
لناموا فما إن من حديث ولا صَالِ

فإن ثمة أبياتاً أخرى يقول فيها :

ويا رب يوم قد لهوت وليلة
بآنسة كانها خط تمثال
يضيء الفراش وجهها لضجيعها
كمصباح زيت في قناديل دبال
ومثلك بيضاء العوارض طفلة
لعوب تنسيني إذا قمت سربالي
كحقف النقا يمشي الوليدان فوقه
بما احتسبا من لين مس وتسهال
لطيفة طي الكشح غير مفاضة
إذا انفتلت مرتجةٍ غير مِثْفال
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت
هصرتُ بغصن ذي شماريخ ميال (1)

وفي القصيدة التي اختار منها ابن شرف بيتا واحداً فقط هو :

ولما دنوت تسديتها
فتوبا نسيت وثوبا اجر (2)

ثمة أبيات أخرى أيضاً.

فهل ترى ابن شرف اقتصر على ذكر الأبيات المشار إليها آنفاً، لأنها الأكثر دورانا في كتب النقاد، أم لأنه تعفف عن ذكر الأبيات الأخرى وفيها ما هو أكثر جرأة وتصريحاً وتصويراً؟ أم أنه قصد إلى أن يمثل لنا بهذه الأبيات فنقيس ما لم نره بما رأينا؟ أيا كان الأمر، فإن ابن شرف تنبه لكثير مما أشرنا إليه فرد قائلاً: «فإن قال قائل: إنما وصفت عن امرىء القيس عيوباً من خُلقه لا في شعره ، قلنا: هل أراد بما وصف في شعره إلا الفخر ؟ فإن قال : لم يرد ذلك وأنما أراد إظهار عيبه قلنا : فأحمق الناس إذا هو، ولم يكن كذلك. وإن قال : نعم ، الفخر، قلنا: فقد نطق شعره بقدر ما أراد، وترجم عنه قريضه بأقبح الأوصاف. فأي خلل من خلال الشعر أشد من الانعكاس والتناقض، وكل ما يخزي من الشعر فهو من اشد عيوبه(3).

الخاتمة واهم الاستنتاجات

اولاً: أوجه الاتفاق بين الباقلاني وابن شرف

رغم اختلاف الخلفية المذهبية والجغرافية بين الباقلاني (في البصرة ثم بغداد) وابن شرف القيرواني (في بلاد المغرب)، إلا أن موقفيهما من شعر امرئ القيس يشتركان في عدة نقاط رئيسة، أهمها:

أ. رفض الجوانب اللاأخلاقية في شعر امرئ القيس: كلا الناقدين عبّر عن رفضه لصور المجون والغزل الفاحش التي امتلأ بها شعر امرئ القيس، واعتبرا أن هذه الصور تتنافى مع الذوق الإسلامي وتعكس انحلالًا لا يليق بمكانة الشعر وأثره في النفوس.

ب. التأكيد على وظيفة الشعر الأخلاقية: كلاهما تعامل مع الشعر بوصفه أداة ذات تأثير تربوي وسلوكي، وبالتالي يجب أن يخضع الشعر لمعايير تحكمه، وأهمها مراعاة القيم الأخلاقية والدينية. فالشعر ليس ترفًا أو لعبًا لغويًا فحسب، بل وسيلة لها أثر في صياغة الوعي العام.

ج. تمثيل الشعر الجاهلي كمرآة للجاهلية: اتفقا على أن شعر امرئ القيس يمثّل في كثير من الأحيان

(1) ديوان امرؤ القيس ، ص 29 – 32
(2) ديوان امرؤ القيس ، ص 159 وما بعدها.
(3) رسائل الانتقاد ابن شرف ، ص 45.44

مظاهر الانحلال التي سادت العصر الجاهلي، مثل شرب الخمر، وملاحقة النساء، والمباهاة بالفجور، مما يستدعي النقد والتصحيح من منظور إسلامي.

ثانياً: أوجه الاختلاف بينهما

ورغم نقاط الاتفاق العامة، فإن منهجية المعالجة واللغة المستخدمة وعمق الطرح تكشف عن اختلاف جوهري بين الناقدين في فهمهم وتطبيقهم للاتجاه الأخلاقي

أ: الاختلاف في المنهج النقدي:

الباقلاني اعتمد على منهج عقلاني تحليلي، وركّز على تفكيك الصور الشعرية من حيث تناسقها مع القيم الدينية، واستند إلى خلفيته الكلامية والأصولية في إصدار الأحكام.أما ابن شرف فقد استخدم منهجًا ساخرًا تهكميًا، ينتقد شعر امرئ القيس بأسلوب أدبي لاذع يُظهر مفارقات أخلاقية أو سخرية اجتماعية، مما يعكس ذائقة نقدية أقرب إلى الذوق العام من المنهج الكلامي.

ب: الاختلاف في الخلفية الدينية والمذهبية:

الباقلاني ينتمي إلى المدرسة الأشعرية في علم الكلام، وهي مدرسة عقلانية تهدف إلى الانتصار للإسلام عبر المنطق، وقد انعكس ذلك على لغته في نقد الشعر.أما ابن شرف فكان أقرب إلى الحسّ الشعبي المحافظ في بيئة القيروان، فتأثرت ملاحظاته النقدية بروح العامة ونظرتهم إلى الأخلاق والحياء، دون أن يتعمق كثيرًا في التفصيلات العقائدية.

ج: تفاوت في الغاية من النقد:

الباقلاني أراد من نقده أن يُثبت تفوق القرآن على الشعر الجاهلي، فاستخدم امرأ القيس كمثال على الانحراف الفني والأخلاقي مقارنة بالإعجاز القرآني.ابن شرف كان أكثر تركيزًا على النقد التهذيبي والتقويمي داخل الساحة الأدبية، فكان معنيًا بإصلاح الذوق العام وتوجيه الأدباء المعاصرين، أكثر من انشغاله بالمفاضلة بين الشعر والقرآن.

د: اختلاف البيئة الزمانية والمكانية

لا يمكن فهم النقد الأخلاقي عند الباقلاني وابن شرف بمعزل عن البيئة التي عاش فيها كل منهما، سواء من حيث الزمان أو المكان .فضمن السياق الزماني الباقلاني عاش في أوج ازدهار العصر العباسي الثاني، حيث كثرت المجادلات الكلامية والمناظرات، وانشغل العلماء بإثبات الإعجاز القرآني والردّ على الشعوبيين والزنادقة. لذلك، جاء نقده في إطار دفاعي عن الإسلام ضد التهويل بقيمة الشعر الجاهلي.وابن شرف عاش في ظل دولة الفاطميين ثم الزيريين في المغرب، حيث برزت النزعة الأدبية المحافظِة، وصار الشعر يُنظر إليه كوسيلة تعبير عن الهوية والخلق الإسلامي، لذلك كانت اللغة الأخلاقية عنده أقرب إلى الإصلاح المجتمعي من الدفاع العقدي.

اما السياق المكاني الباقلاني ابن بيئة مشرقية غنية بالحوار الثقافي والعقلي، مما انعكس على لغته الجدلية والمنهج الاستدلالي.وابن شرف ابن بيئة مغربية أدبية صافية، ذات حس ذوقي وميل إلى السخرية والمرح في النقد، ما جعل نقده أقرب إلى التهكم المؤدب من الجدل العقلي.

وختاما يُظهر هذا البحث أن الاتجاه الأخلاقي في نقد شعر امرئ القيس عند الباقلاني وابن شرف لم يكن نمطًا واحدًا، بل اتخذ أشكالًا متعددة باختلاف المنهج والرؤية والغاية. وبينما جسّد الباقلاني نموذجًا للنقد العقلاني المؤسس على العقيدة والدفاع عن القرآن، قدّم ابن شرف نموذجًا للنقد الذوقي الإصلاحي المرتبط بالسياق

الاجتماعي والأدبي. إنّ المقارنة بين الناقدين تكشف عن ثراء النقد الأدبي الإسلامي، وامتلاكه القدرة على التفاعل مع الشعر الجاهلي بروح ناقدة، دون أن يفقد حسّ التذوق .

المصادر والمراجع

القران الكريم
1. أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره ، نورة الشملان، الناشر عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الرياض- الرياض المملكة العربية
2. إعجاز القرآن الباقلاني ، تحقيق احمد صقر ،دار المعارف ،القاهرة
3. التفكير النقدي عند العرب - عيسى علي العاكوب دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 2000 .
4. خريدة القصر وجريدة العصر العماد الأصفهاني، ق 4 ج 2 ، تحقيق عمر الدسوقي وزميله ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة
5. دراسات نقدية في الشعر العربي،بهجت عبد الغفور الحديثي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 2004
6. ديوان الفرزدق ، شرحة وضبطه علي فاعور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1987
7. ديوان امرؤ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، ط4 .
8. ديوان جرير، شرحة وضبطه إيليا الحاوي دار الكتاب اللبناني - بيروت ، ط1 ، 1982 .
9. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام. تحقيق د.إحسان عباس، ط2، دار الثقافة بيروت. 1979
10. رسائل الانتقاد (في نقد الشعر والشعراء) ابن شرف القيرواني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد بيروت ، ط1 .
11. الشعر والشعراء، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري، تحقيق: احمد محمد شاكر، الناشر دارالمعارف، 1982 ، ط 1 - 2008.
12. طبقات فحول الشعراء - بن سلام الجمحي تحقيق: أبو فهر محمود محمد شاكر مطبعة المدني. مصر
13. عيون الأخبار - ابن قتيبة - دار الكتب المصرية القاهرة 1930 .
14. المعايير النقدية في كتاب الموازنة للآمدي - عادل بوديار - معهد الآداب واللغات - الجزائر.
15. مفهوم الشعر في التراث النقدي - جابر عصفور، ط ، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1990 .
16. الموازنة - الآمدي - تحقيق السيد أحمد صقر - دارالمعارف بمصر - 1992 - مج1 .
17. النقد الأدبي في آثاره و أعلامه حسن الحاج حسن المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع بيروت - 1996.
18. النقد بين الفن والأخلاق - مريم النعيمي - الناشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث - الدوحة
19. الوافي بالوفيات الصفدي، عناية ديدرينغ، دار فرانز شتاينر ، شتوتغارت ، 1991.
20. وفيات الأعيان ابن خلكان ، تحقيق د.احسان عباس ، دار صادر، بيروت ، 1977 .